طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي

٧٢٧ — ٧٧١هـ

تحقيق

محمود محمد الطناحي عبد الفتاح محمد الحلو

١

[الطبعة الأولى]

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

(١)

يعتبر القرن الثامن الهجرى مرحلة من مراحل النشاط الفكرى ، التى ظهرت فى الدولة الإسلامية عقب الزحف التترى على بلاد الإسلام فى القرنين السادس والسابع ؛ فإن الأهوال العظيمة التى صحبت هذا المد ، وما نجم عنها من إهلاك للبشر ، وتخريب للديار وحرق وإغراق للثورة العلمية على يد هؤلاء الهمج نبه جمهرة العلماء العرب، ودفعهم دفعا إلى تراث آبائهم وأجدادهم ، فعكفوا عليه تحصيلا وفهما ، وتمثلوه علما وفنا ، ثم فرغوا بعد ذلك إلى أقلامهم يسجلونه على نحو جديد ، يدنيه من كل قلب ، ويحببه إلى كل نفس .

وكان ذلك إيذانا ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية ، ولمعت آنذاك فى سماء الفكر شخصيات فريدة، من أمثال الذهبى والنُّوَيرى والصفدى وابن السبكى ، ثم أتى من بعدهم أمثال ابن حجر والسيوطى .

وعلى الرغم مما اكتنف القرن الثامن من ظلام الحكم المملوكى ومآسيه ، فإن همة العلماء لم تفتر، وكأنما كانوا موكولين بتراث العرب وقد تجمع ما تبقى لديهم من أصوله ، كأنما وكلوا بهذا التراث يحفظونه من الضياع، ويقونه شر الخطوب وكوارث الحروب ، وظلوا حفاظا على هذه الثروة الفكرية ، يسلمونها من جيل إلى جيل ، حتى أتت إلينا غنية موفورة ، تقدم بعض العزاء عن مافقدناه من أصول الفكر العربى، التى ذهب بها الغزو التترى ،وأتت على كثير منها الحروب الصليبية .

ولقد كانت أسرة زين الدين أبي محمد عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ، من بين الأسر التي شاركت بنصيب كبير في تلك النهضة العلمية.

فولده شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ـ والد تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب المترجم ـ: «طار اسمه فملأ الأقطار، وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار»[١] وقد ولي التدريس في المنصورية، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون والهكارية بمصر، والمسرورية بدمشق. وتصدى لتقي الدين أحمد بن تيمية، ورد عليه في مسألتي: الطلاق، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ووقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضي قضاة الشام، وولي بدمشق مع القضاء خطابة الجامع الأموي، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، والتدريس بالشامية البرانية، وصنف ما يربو على مائة وخمسين مصنفا في العلوم الشرعية والعربية.

وحفيده بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ ـ أخو المترجم ـ: «كانت له اليد الطولى في علوم اللسان العربي والمعاني والبيان»[٢]، تولى التدريس بجامع ابن طولون وجامع الظاهر، والسيفية، والهكارية، وأسند إليه إفتاء دار العدل، وقضاء العسكر وقضاء الشام، وخطابة جامع ابن طولون.

وحفيده جمال الدين أبو الطيب الحسين بن علي المتوفى سنة ٧٥٥ هـ ـ أخو المترجم ـ: «كان ذهنه ثاقبا ولإدراك المعاني مراقبا، وكان يعرف العروض جيدا وينظم الشعر بل الدر ويأتي في معانيه بالزهر الزهر، عفيف اليد في أحكامه»[٣]، وقد تولى التدريس بالهكارية وبالشامية البرانية.

أما حفيده تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي، فقد أوفى على الغاية، واستطاع بذكائه وجده ودأبه أن يصل إلى أرقى المناصب، وأن يحتل مكان الصدارة في الفتيا والتدريس، وأن يخرج إلى الناس من مؤلفاته ما يبهر: غزارة علم، وجمال عرض، وحسن تنسيق.

(١) ترجمته (الطبقة السابعة).
(٢) الدرر الكامنة ١ / ٢١١.
(٣) ترجمته (الطبقة السابعة).

ولد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على بن زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن ضياء الدين أبى الحسن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكى بمصر سنة ٧٢٧هـ. ذكر ذلك أكثر من واحد ممن ترجموا له، ولكن ابن حجر بعد أن ذكر فى الدرر الكامنة أن مولده فى هذه السنة، عاد فذكر فى طبقات الحفاظ التى جعلها ذيلا على شرح البديعية لابن ناصر أن مولده كان فى سنة ٧٢٨ هـ. وقد وافقه ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى والذهبى فى المعجم المختص فذكرا أن مولده كان فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ولكن الزبيدى فى تاج العروس (س ب ك) يذكر أن مولده كان سنة ٧٢٩هـ، وربما نقل الزبيدى هذا عن السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة.

وقد فتح تاج الدين عينيه على بيت يموج بالمعرفة، ورأى وفود العلماء وهى تنسل إلى مجلس أبيه، ينهلون من علمه، ويقيدون فوائده، فليس غريبا أن يبدأ عبد الوهاب فى التحصيل مبكرا، وأن يحفظ القرآن فى صغره، ثم يأخذ عن والده أصول العربية والعقيدة والتشريع ويتتلمذ لأساتذة عصره، فيجيز له فى مصر بعد فترة وجيزة ابن الشحنة، ويونس الدبوسى، ويسمع على يحيى بن المصرى، وعبد المحسن الصابونى، وابن سيد الناس، وصالح بن مختار وعبد القادر بن الملوك، وغيرهم. ويذكر ابن تغرى بردى أيضا أنه سمع بمصر من القدسى وطبقته.

وحين تولى والده منصب قاضى قضاة الشام رحل معه إلى دمشق، فقدمها فى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، وفى دمشق سمع من زينب بنت الكمال، وابن أبى اليسر، وابن تمام، وقرأ بنفسه على المزى، ولازم الذهبى، وتخرّج بتقى الدين ابن رافع، وأخذ عن الشيخ أثير الدين أبى حيان، وأجاز له الحجّار، وخرّج له ابن سعد مشيخة حدّث بها.

ولم يكتف ابن السبكى بتلقيه المعرفة على هؤلاء الأعلام، وإنما اتجه إلى التحصيل بنفسه

وأقبل على العلم بهمة فتيّة ، ونفس مشوقة ، حتى قال عنه العماد الحنبلى : « طلب بنفسه ودأب » ، وقال عنه ابن حجر العسقلانى : « أمعن فى طلب الحديث ، وكتب الأجزاء والطباق ، مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب » .

وقد صور تاج الدين هذه الحقبة من حياته فى كتابه الطبقات ، وكشف عن اهتمام والده بتربيته ، وحرصه على تثقيفه ، على يد كبار العلماء ، ممن يثق فى علمهم ، ويطمئن إلى وسائلهم فى الدرس والتلقين ، فقال فى ترجمة شيخه المزِّىّ فى الطبقة السابعة : « وكنت أنا كثير الملازمة للذهبى ، أمضى إليه فى كل يوم مرتين : بكرة ، والعصر . وأما المزى فما كنت أمضى إليه غير مرتين فى الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبى كان كثير الملاطفة والمحبة فىّ ، بحيث يعرف مَن عرف حالى معه أنه لم يكن يحب أحدا كمحبته فىّ ، وكنت أنا شابا ، فيقع ذلك منى موقعا عظيما ، وأما المزى فكان رجلا عبوسا مهيبا ، وكان الوالد يحب أن ألازم المزى أكثر من ملازمة الذهبى ، لعظمة المزى عنده . وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول : هات ، ما استفدت ، ما قرأت ، ما سمعت ؟ فأحكى له مجلسى معه ، فكنت إذا جئت من عند الذهبى يقول : جئت من عند شيخك . وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقارى يقول : جئت من جامع سكر[1] ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول : جئت من الشامية ، لأنى كنت أقرأ عليه فيها . وإذا جئت من عند الشيخ أبى العباس الأندرشى يقول : جئت من الجامع لأنى كنت أقرأ عليه فيه . وهكذا ، وأما إذا جئت من عند المزى فيقول : جئت من عند الشيخ . ويفصح بلفظ الشيخ ، ويرفع بها صوته . وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت فى قلبى عظمته ، ويحثنى على ملازمته » .

ويدل على عناية والده به ، وحرصه عليه ، مع نجابة تاج الدين ونباهة شأنه ، ما يحكيه فى الطبقات فى ترجمة المزى أيضاً ، حين يذكر أنه : « شغر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلنى فيه ، فعجبت من ذلك ، فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده فى المدارس . وها أنا لم آل

(١) لعله : جامع تنكز .

فى عمرى فقاهة فى غير دار الحديث ، ولا إعادة إلا عند الشيخ الوالد ، وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس . على هذا ربانا رحمه الله . فسألته فقال: ليقال إنك كنت فقيها عند المزى . ولما بلغ المزى ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمى فى الطبقة العليا ، فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب ، لا والله ، عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة ، اكتبوا اسمه مع المبتدئين . فقال له شيخنا الذهبي : والله هو فوق هذه الدرجة ، وهو محدث جيد ـ هذه عبارة الذهبي ـ فضحك الوالد وقال : يكون مع المتوسطين » .

وقد كان لهذا النبوغ المبكر أثره فى لفت أنظار معاصريه إليه ، وتوليه المناصب العلمية فى سن لم يُسمَع أن أحدا وليها فيه ، فقد أجازه شمس الدين ابن النقيب بالإفتاء والتدريس ، ولما مات ابن النقيب كان عمر تاج الدين ثمان عشرة سنة .

وانتبه الذهبي إلى ما يتميز به تاج الدين ، فسجل فى ترجمته له فى المعجم المختص(١) قوله : « عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقى الدين على بن عبد الكافى القاضى ، تاج الدين أبو نصر السبكى الشافعى ، ولد سنة ٧٢٨هـ . كتب عنى أجزاء نسخها ، وأرجو أن يتميز فى العلم ، درّس وأفتى ، وعنى بهذا الشأن » .

وقال عنه بعد ذلك الحافظ شهاب الدين بن حجى(٢) : « حصل فنونا من العلم : من الفقه ، والأصول وكان ماهرا فيه ، والحديث والأدب ، وبرع وشارك فى العربية ، وكان له يد فى النظم والنثر ، جيّد البديهة ، ذا بلاغة وطلاقة لسان وجرأة جنان ، وذكاء مفرط ، وذهن وقّاد »

وتولى أبو نصر بعد هذا مناصب عديدة ، فقد تولى التدريس فى العزيزية ، والعادلية الكبرى ، والغزالية ، والعذراوية ، والشاميتين ، والناصرية ، والأمينية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، والتقوية ، والدماغية ، والمسرورية ، كما تولى تدريس الشافعى بمصر والشيخونية ، والميعاد بالجامع الطولونى .

---

(١) نقلا عن الكتانى فى فهرس الفهارس .

(٢) نقلا عن ابن حجر فى الدرر الكامنة .

كما تولى تاج الدين خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وناب عن أبيه فى الحكم ، وولى توقيع الدَّست سنة ٧٥٤هـ ـ وكتاب الدست يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب ، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، ويقرأون القصص على السلطان ، بعد قراءة كاتب السر ، على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر ـ يقـول تاج الدين : « وقد وليت توقيع الدست بالشام ، بين يدى ملك الأمراء الأمير علاء الدين أمير على بن على الماردينى نائب الشام » .

وقد تولى أبو نصر قضاء الشام فى ربيع الأول سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ذكر ذلك ابن العماد الحنبلى ، وذكر أن هذا تم بسؤال والده ، ولكن ابن حجر العسقلانى يذكر فى « الدرر الكامنة » أن توليه القضاء كان فى ربيع الأول سنة سبع وخمسين .

وقد ظل تاج الدين يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه أجله ، وكان ذلك على أربع مراحل ؛ فقد عزل مدة لطيفة ـ كما يقول ابن العماد ـ ثم أعيد ، ثم عزل بأخيه بهاء الدين ، وتوجه إلى مصر على وظائف أخيه .

ويصف لنا صلاح الدين الصفدى هذه الفترة ، وشوق دمشق إلى تاج الدين ، فى رسالة رد بها على رسالة من تاج الدين وهو بمصر سنة ٧٦٣ هـ ، فيقول[1] :

لكن جعلتَ الشام بعـ ... دك كالجحيم وكان جَنَّهْ
ودمشق بعـدك قد تردّ ... ت ثوب حزن فيه دُكْنَهْ
لم يُسق مِن بَرَد البَريـ ... ـص ولو أتى أولاد جَفْنَهْ
وكذاك ثوب بعـد بعـ ... ـدك ما تنسّى بل تسنَّهْ
والجامع المعـمور كا ... د يزعزع الأشواق ركنَهْ
والقُبَّـة الشَّمَّاء ليـ ... ـس بجوها للنَّسر قُنَّهْ
كانت به الأعطاف وهـ ... ـى موائد يملأن صحنَهْ

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة خليل بن أيبك الصفدى (الطبقة السابعة) .

والآن أقفر وحشةً وأسال منه السَّقف دهنَهْ

والله خيَّب فيك ما قال الحسود ورد ظنَّهْ

قد كاد حتى كاد يد سى ما تقوَّله عِرَضْنَهْ

ثم عاد تاج الدين إلى القضاء على عادته ، وولى الخطابة بعد وفاة ابن جملة ، ثم عزل وحصل له فتنة شديدة ، وسجن بالقلعة نحو ثمانين يوما ، ثم عاد إلى القضاء .

ومن يعرف الأحوال السياسية فى ذلك العصر ، لا يدهش لمثل هذه الأمور ، فقد كان تولية قاض وعزله من الأمور السهلة الهينة ، التى لا يرى فيها الحكام المماليك إثما ولا حرجا ؛ ولكن عزل تاج الدين فى المرة الأخيرة يسترعى الانتباه ، فإن الأمر لم يقف عند مجرد عزله ، وإنما أجريت محاكمة لتاج الدين ، حكم فيها ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة ، وهرب أخوه بهاء الدين ، فاختفى عند التاج الملكى ، وهو يومئذ مباشر بالشام قبل أن يُسلم ، واجتهدوا فى طلبه فلم يظفروا به .

ولكن تُرى ما سبب هذه المحاكمة ، وذلك الاضطهاد للأسرة كلها ؟ !

يورد ابن حجر العسقلانى تفسيرين لهذه الحادثة :

أولهما قوله : وكان من أقوى الأسباب فى عزله المرة الأخيرة ؛ أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار فى جمادى الأولى سنة ٦٩ ، وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة ، لكنها صرفت بعلم القاضى بوصولات ليس فيها تعيين اسم القابض ، فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضى ، فامتنع ، فآل الأمر إلى عزل القاضى .

وثانيهما قوله : قرأت بخط القاضى تقى الدين الزبيرى : لما قُتل يَلبُغا طلب الأشرفُ أميرَ على الماردينى ، ومنكلى بُغا أتابك العساكر ، فكان أول شىء تكلم فيه أمير على عزل تاج الدين ، وقرر فى القضاء عوضا عنه الشيخ سراج الدين البلقينى ، فولى القضاء والخطابة وتوجه ، وكشفوا على تاج الدين ، وحكم ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة .

ويبدو لنا أن كل واحد من التفسيرين يوضح جانبا من الحقيقة ، فإن ابن تغرى بردى يذكر فى النجوم الزاهرة ـ أثناء الحديث على ولاية الأشرف ـ : أن أمير على حين ولى إمرة الشام كان أول ما طالب به عزل القضاة . ولعلها فرصة سنحت لمن غصّت حلوقهم بالمرارة منه من العلماء ، فقد كانوا ينفسون عليه مكانته ، ويحسدونه على ما أوتى من علم ، وما أصاب من نجح لدى الحكام وجمهور الناس ، فلا عجب أن نراهم ينسجون حوله هذه التهمة ، ويقفون منه هذا الموقف العدائى العنيف ، خاصة وأنه كان يعطى نفسه حقها من التكريم ، فقد ذكر السيوطى أنه قال فى ورقة كتبها إلى نائب الشام : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحد يرد علىّ هذه الكلمة » ، ويعقب السيوطى على ذلك بقوله : « وهو مقبول فيما قال عن نفسه » .

ولعل ما نذر تاج الدين نفسه له ، من دراسة لأحوال الأمة الإسلامية فى عصره ، ونقد لطوائف الناس ، وتوضيح لأخطائهم ، ورسم السبيل إلى إصلاحهم فى كتابه العظيم « معيد النعم ومبيد النقم » كان من أقوى الأسباب فى عزله ، واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع تاج الدين أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، فى اثنتى عشرة ومائة مسألة ، بادئا بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية ، متدرجا إلى كل الوظائف العامة ، حتى يصل إلى الفلاح فى أرضه ، ويقرر فى صراحة ندر أن تجدها فى عصره : « أن الفلاح حر لا يد لآدمى عليه » .

لعل ذلك كله رسم جوانب المأساة ، ولكن تاج الدين ، بشهادة معاصريه وقف موقف العالم المتثبت ، والداعية المؤمن بدعوته ؛ فقد قال عنه معاصره ابن كثير : «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله ، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله ، وانتهت إليه الرئاسة بالشام ، وأبان فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة ، حتى أفحم خصومه ، ثم لما عاد عفا عنهم ، وصفح عمن قام عليه » .

ولقد طارت شهرة تاج الدين فى كل الأقطار الإسلامية ، وأصبح عمدة الناس فى

الفُتيا ، وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه فى كثير مما يعرض لهم ، كما يقول المقريزى فى « المواعظ والاعتبار » .

يقول ابن حجر فى ذكر رجوعه إلى القضاء فى المرة الأخيرة ، نقلا عن القاضى تقى الدين الزبيرى: « ولم يزل من يتعصب للسبكى يلح على أمير على ، حتى أذن فى إحضار تاج الدين وأخيه من دمشق ، فقدم بهاء الدين القاهرة ، وأقام تاج الدين فى دمشق ، فلما بلغ ذلك البلقينى توجه إلى مصر ، فأقام قليلا ، ثم رجع إلى دمشق ، فتسلط عليه أهل الشام ، وكتبوا فيه محضرا ، وأسمعوه ما يكره . وسعى بهاء الدين لأخيه حتى ولى الخطابة ، فخطب أول يوم من شوال ، فشق ذلك على البلقينى ، وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة ، فأعيد تاج الدين إلى القضاء ، وهى الولاية الأخيرة التى مات فيها».

وبعد هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال توفى تاج الدين أبو نصر بن على شهيدا بالطاعون، بالدَّهشة ظاهر دمشق ، فى ذى الحجة ، خطب يوم الجمعة ، وطعن ليلة السبت رابعه ، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١ هـ ، ودفن بتربة السبكية بسفح قاسون ، عن أربع وأربعين سنة .

(٣)

هذه الحياة الحافلة التى عاشها تاج الدين تدل على ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة رحبة ، رفدتها أفكار شيوخه ، وهذبها حرصه ودأبه ، ثم تولى بسطها أمام الناس ذهنٌ وقاد ولسان طلق ، وحجة قوية ، ونشرها بين جمهرة المثقفين ما أخذ نفسه به من التقييد والتأليف وما قُدِّر لمؤلفاته من القبول والنُّجح .

وأول ما يلفت النظر فى ثقافة تاج الدين أنها ثقافة فقهية ، فقد حظى الفقه فى ذلك الوقت باهتمام العلماء ، لحاجة الناس إليه ، ولتصدر مناصب الفتيا والقضاء ، وقد ضرب تاج الدين فى هذا الفن بسهم وافر ، وألف فيه ، وجمع لوالده فتاويه وكثيرا من المسائل التى تفرد

فيها برأى ، أو رجح فيها قولا على قول ؛ وقد بلغ من اهتمامه بالفقه أنه ملأ الطبقات الكبرى بمسائله ، وبسط فيها مناظراته .

كما اهتم تاج الدين بأصول الفقه ، وصنف فى ذلك مختصرا ، جمعه من زهاء مائة مصنف مع زيادات قيّدها ، وبلاغة فى الاختصار .

وعنى بالحديث ، فروى السنة عن حفّاظ عصره ، وقد صدق ابن حجر فى قوله : « ومن الطبقات تعرف منزلته فى الحديث » . واهتم بالجرح والتعديل ، وله فى نقد الرجال نظرات نافذة . وهو يضع فى ذلك قواعد ، يستدركها على من سبقه . ففى ترجمة أحمد بن صالح المصرى (الطبقة الأولى) يقول : «الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكّوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه : من تعصب مذهبى أو غيره ، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة . وإلا لو فتحنا هذا الباب ، أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقد ناقش ابن السبكى مشكلات العقيدة ، وخلافيات علم الكلام ، ومسائل المنطق فى كثير من المواضع ، فى الطبقات الكبرى ، وعقد للحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وزيادة الإيمان ونقصانه ، والقدر فصلا طويلا فى المقدمة ، وأفاض فى هذه المسائل ؛ مما يدل على بصره بعلم الكلام ، وطول باعه فيه .

ولتاج الدين ولع بمعرفة الحوادث التاريخية ، وسير الرجال ، وقد دفعه هذا إلى الإحاطة بالتاريخ الإسلامى ، وإلى التنقيب فى تاريخ العلماء ، والاستفادة من تجاربهم ، وهو يدرك بذكائه مواطن الوهْن فى مؤلفات من سبقه ، ويحاول أن يضع لنفسه ، ولمن يأتى بعده قواعد فى التاريخ ، ونهجا فى سرد الحوادث .

ورغم محبته لشيخه الذهبى وإعزازه له ، فقد أخذ عليه أمورا فى تاريخه ، يقول فى ترجمة أحمد بن صالح المصرى أيضاً : « وأما تاريخ شيخنا الذهبى ـ غفر الله له ـ فإنه على حسنه

وجمعه مشحون بالتعصب المفرط ـ لا واخذه الله ـ ، فقد أكثر الوقيعة فى أهل الدين ، أعنى الفقراء االذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين ، ومال فأفرط على الأشاعرة ، ومدح فزاد فى المجسمة . هذا وهو الحافظ المِدْره ، والإمام المبجل ، فما ظنك بعوام المؤرخين» .

ويعقب ابن السبكى على ذلك بذكر قاعدة فى المؤرخين فيقول : « فالرأى عندنا أن لا يُقبَل مدح ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة ، وحبر الأمة، وهو الشيخ الإمام الوالد رحمه الله حيث قال ، ونقلته من خطه فى مجاميعه : يشترط فى المؤرخ الصدقُ ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذى نقله أخذه فى المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله . ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول فى التراجم من النقول ويقصر أن يكون عارفا بحال صاحب الترجمة : علما ، ودينا ، وغيرهما من الصفات ، وهذا عزيز جدا . وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حالَ ترجمته جميعَ حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ، ولا تنقص عنه ، وألا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه ، والتقصير فى غيره ، بل إما أن يكون مجردا عن الهوى ، وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى » .

ورغم اشتغال ابن السبكى بالفقه والحديث والتاريخ فقد احتفل بعلوم اللسان العربى ، وأفسح من صدر كتابه الطبقات لمسائل النحو والصرف والبلاغة والعروض ، واهتم بغريب اللغة ، بل إنه استدرك على ابن الأثير حديث ريان بن قيسور ، وقال عنه[1] : « إن ابن الأثير لم يذكره فى نهاية غريب الحديث ، مع شدة تفحصه » .

---

(١) الطبقات الكبرى : ترجمة محمد بن إبراهيم البوشنجى (الطبقة الثانية) .

وقد تعلق أبو نصر بدراسة الأدب منذ صباه ، واهتم بالشعر وصناعته ، وله فى ذلك نظرات نافذة فى اختيار كلمة دون كلمة ، أو تفضيل شاعر على شاعر ، تجد ذلك مبسوطاً فى طول كتابه الطبقات وعرضه ، وقد صحب فى حداثة سنه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، وبهذه الصحبة استطاع السبكى أن يشحذ ملكته ، وأن يتناول القريض كما يتناوله مثله من العلماء ، يقول تاج الدين :

« كنت أصحبه منذ كنت دون سن البلوغ ، وكان يكاتبنى وأكاتبه ، وبه رغبت فى الأدب فربما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عنى إذ ذاك وأنا ذاكر بعض ما بيننا مما كان فى صغرى .

ثم لما كان بعد ذلك كتب إلى مرة ، وقد سافر إلى مصر ولم يودعنى :

يا سيدا سافرت عنه ولم أجد　　　جلدى يطاوعنى على توديعه
إن غبت عنك فإن قلبى حاضر　　　يصف اشتياقى للحمى وربوعه

فى أبيات أخر ، فكتبت الجواب :

يا راحلا بحشا المقيم على الوفا　　　ما الطرف بعدك مؤذنا بهجوعه
إن غبت عنه فما تغير منه إلا　　　م جسمه سقما ولون دموعه
والقلب بيت هواك راح كأنه　　　بيت العروضيين من تقطيعه

فى أبيات أخر نسيتها » .

ويستطرد ابن السبكى فى ذكر هذه المطارحات فيقول :

« كتب إلى مرة ـ وقد ولد له ولد ـ يدعونى إلى حضور عقيقته :

عبدك هذا الجديد أضحى　　　يقول فاسمع له طريقه
يا جوهرا فى الزمان فردا　　　ماضر أن تحضر العقيقه

فكتبت إليه :

هنئت ذا الجوهر المفدى　　　بالعرض السكنه والحقيقه
لو لم تكن حازما مصيبا　　　لم تفتقد الناس بالعقيقه

وأعارنى مرة من تذكرته مجلدا ، وكان يصنف كتابا فى الوصف والتشبيه ، وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا نجز : نجز التشبيه منه . فلما وجدت ذلك عليه بخطه ، قلت : هذا نصف بيت . فكتبت إلى جانبه :

نجز التشبيه منه وروى الراوون عنه
إن مولانا أبحرٌ طافح إن لم يكنه
فاقد التشبيه فرد فدع التشبيه منه »

وكتب تاج الدين إلى الصفدى من القاهرة فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة ـ وقد ذكر ابن حبيب فى درة الأسلاك بعض هذه الأبيات ، وهى بتمامها مع رسالة طويلة ، ورد الصفدى عليها مثبتة فى ترجمة خليل بن أيبك فى الطبقة السابعة :

لا تبكين ماءً تسنَّهْ ودع الرسوم المُستجِنَّهْ
خلِّ ادكارك فالدمو ع كليلة آثار دِمْنَهْ
واهجر حبيبا نار خدَّ م يْه إذا حقَّقتَ جنَّهْ
وَسْنان كم نبَّهتُهُ والعُجْبُ يطبق منه جَفْنَهْ
أحْوى بديع الحسن ظبْ ياً فى الحقيقة أو كأنَّهْ

فى قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين .

وتلمح فى أثناء القضايا الأدبية التى يعرضها تاج الدين فى الطبقات مقدار ما كان يتمتع به من إدراك لمواطن الضعف والقوة فى النص الأدبى ، ففى ترجمة محمد بن عبد اللطيف السبكى ـ الطبقة السابعة ـ يذكر قصيدته التى يبدؤها بقوله :

وافتْك عن قرب تباشير الفرحْ وأتتْك مسرعةً مباشير المنحْ

ثم يقول : وهذه قافية حلوة ، أول من بلغنى نظم فيها عبد الله بن المعتز ، حيث يقول :

خلِّ الزمان إذا تقاعس أو جمحْ واشكُ الهموم إلى المدامة والقدحْ
واحفظ فؤادك إن شربت ثلاثة واحذر عليه أن يطير من الفرحْ

فى أبيات ، أُنكر عليه قولُه فيها :

وإذا تمادى فى العتاب قطعتُه ... بالضم والتقبيل حتى يصطلحْ

وقال مهيار :

ما كان سهماً غار بل ظبياً سنحْ ... إن لم يكن قتل الفؤادَ فقد جرحْ

فى خدِّه الكافورِ سبحةُ عنبرٍ ... ما كان أغفلنى الغداةَ عن السُّبَحْ

فى أبيات أنكر عليه قولُه فيها : « بَطَح »[1] .

وقال ابن سناء الملك يمدح الفاضل :

يا قلب ويحك إن ظبيك قد سنحْ ... فتنَحَّ جهدَك عن مراتعه تنحْ

ثم يستطرد ابن السبكى ، فيقول : ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهيار بما اعترضهما ، ووقع هو فى واحدة ، وهى قوله : « لانمسح » فإنها لحن ، ولى أبيات منها :

إن كان عبــد الله أخطأ قوله ... بالضم والتقبيل حتى نصطلحْ

وأتى بشىء ليس يحسن ذكرُه ... مهيارُ حيث يقول قافيةً بطحْ

فلقد لحنتَ وقلتَ فيما قلته ... لو شئتُ أمسحه بلثمى لانمسحْ

فى أشباه لهذا كثيرة ، تجدها فى الطبقات الكبرى .

وكان ابن السبكى يقرض الشعر فى المناسبات التى تعود مثله من العلماء قول الشعر فيها ، فهو يرثى شيخه الذهبى ، ويذم الزمان ، ويرد على الزمخشرى أبياته فى الصفات ، ويراسل أقرانه بالشعر .

كما حبب إلى تاج الدين النظم فى العلوم والمعارف ، فنظم قصيدته فى الخلافيات بين الأشاعرة والماتريدية ، وخص معجزات الرسول بإحدى قصائده ، كما نظم أرجوزة فى الفقه وهو مسجون ، إبان فتنة عزله عن القضاء فى المرة الأخيرة .

---

(١) البيت فى ديوانه ١ /١٨٧ وهو :

طِرْفٌ تعوّد أنه لو طارد الر ... يح الشَّمالَ عليــه فارسُه بَطحْ

(٤)

وقد تمثلت ثقافة تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على فى هذه المؤلفات التى خلفها :

١ — أحاديث رفع اليدين

ذكره بروكلمان .

٢ — الأشباه والنظائر . فى الفروع

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٣ — أوضح المسالك فى المناسك

ذكره بروكلمان .

٤ — تبيين الأحكام فى تحليل الحائض

ذكره بروكلمان .

٥ — ترجيح تصحيح الخلاف

ذكره بروكلمان .

٦ — ترشيح التوشيح . فى أصول الفقه

ذكره ابن حجر ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٧ — توشيح التصحيح

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٨ — جزء فى الطاعون

ذكره حاجى خليفة .

٩ — جلب حلب

ذكره ابن العماد ، وقال عنه : جواب عن أسئلة سأل عنها الأذرعىّ وغيره .

١٠ — جمع الجوامع . فى أصول الفقه

طبع فى مجموع فى مصر ١٣١٠ هـ . قال صاحب كشف الظنون : جمعه من زهاء مائة مصنف ، مشتمل على زبدة ما فى شرحيه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج ، مع زيادات وبلاغة فى الاختصار ، ورتب على مقدمات وسبعة كتب .

١١ — الدلالة عن عموم الرسالة ، جوابا عن أسئلة أهل طرابلس

ذكره بروكلمان .

١٢ — رفع الحاجب عن شرح مختصر ابن الحاجب . فى الأصول

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

١٣ — رفع الحوبة فى وضع التوبة

ذكره بروكلمان .

١٤ — السيف المشهور فى شرح عقيدة أبى منصور [الماتريدى]

ذكره حاجى خليفة .

١٥ — شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للبيضاوى

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة .

١٦ — طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى

١٧ — فتاوى

ذكره بروكلمان .

١٨ — قواعد الدين وعمدة الموحدين

ذكره بروكلمان ، وذكر ابن حجر هذا الكتاب باسم : القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر .

١٩ — مصنف فى علم الألغاز

ذكره حاجى خليفة .

٢٠ — معيد النعم ومبيد النقم

طبع فى ليدن ١٩٠٨م بعناية الأستاذ David. W. Myhrman وطبع أيضاً بالقاهرة طبعات مختلفة .

٢١ — مناقب الشيخ أبى بكر بن قوام

ذكره بروكلمان .

٢٢ — منع الموانع

وهو تعليق على جمع الجوامع . طبع فى مجموع ـ مصر ١٣٢٢ هـ .

لم يكن ابن السبكى أول من صنف فى طبقات الشافعية ، ولا آخر من أدلى دلوه ، فقد سبقته جهود وتلته تصانيف . وقد ذكر فى مقدمته من صنفوا فى الطبقات . قال :

«فأول من بلغنى صنف فى ذلك الإمام أبو حفص عمر بن على المطَّوِّعى ، المتوفى نحو ٤٤٠ ه صنّف للإمام أبى الطيب سهل الصُّعلوكى كتابا سماه « المُذهَب فى ذكر شيوخ المذهب » .

ثم ألف القاضى أبوالطيب الطبرى المتوفى سنة ٤٥٠ ه مختصرا ، ذكر فيه مولد الشافعى رضى الله عنه ، وعدّ فى آخره جماعة من الأصحاب .

ثم ألف الإمام أبو عاصم العبّادى المتوفى سنة ٤٥٨ ه كتابه .

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ ه وهو غير مقتصر على الشافعيين ، بل فيه الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة ، والظاهرية .

ثم ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٩ ه كتابه الطبقات .

ثم ألف القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القاضى الشيرازى المتوفى سنة ٥٠٠ ه كتاب « تاريخ الفقهاء » .

ثم ألف المحدِّث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى المعروف بفُندُق المتوفى سنة ٥٦٥ ه ، كتابا سماه « وسائل الألمعى فى فضائل الشافعى » .

ثم جمع الشيخ الإمام أبو النجيب السُّهْرَوَرْدِى المتوفى سنة ٥٦٣ ه مجموعا .

ثم جاء الشيخ ابن الصَّلاح المتوفى سنة ٦٤٣ ه فألف كتابه ، ولكن المنية عاجلته والكتاب مسوّدة ، فأخذه الإمام أبو زكريا النووى المتوفى سنة ٦٧٦ ه واختصره وزاد أسامى قليلة جدا ، ومات أيضا وكتابه مسوّدة فبيضه الحافظ أبو الحجاج المِزِّى ، المتوفى سنة ٧٤٢ ه .

ثم ألف الشيخ عماد الدين بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥هـ كتابه » .

هذه جهود العلماء قبل ابن السبكي . كما ذكرها .

ومن معاصريه ثم من بعده صنف فى الطبقات :

الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوى المتوفى سنة ٧٧٢ هـ فرغ من تأليفه سنة ٧٦٩ هـ . ورتب على حروف الاشتهار . ذكر فى كل حرف فصلين ، أوله فى رجال الشرح الكبير والروضة ، والثانى فى الزائد عليهما . ونقل من طبقات التفليسى لموسوى عمر بن بُندار المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهى مجلد ضخم ألفه قبل الإسنوى[١] .

ثم صنف الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ[٢] .

ثم صنف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسينى الواسطى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ كتابه « المطالب العلية فى مناقب الشافعية »[٣] .

ومن رجال القرن الثامن أيضا صنف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العثمانى قاضى صفد ، المتوفى سنة ٧٨٠ هـ[٤] .

ثم ألف القاضى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قطب الدين عبد الرحمن ،المتوفى فى حدود سنة ٨٠٠ هـ كتابه « الكافى فى معرفة علماء مذهب الشافعى »[٥] .

وصنف سراج الدين عمر بن على المعروف بابن الملقِّن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ كتابا سماه « العقد المذهب فى طبقات حملة المذهب » من زمن الشافعى ، بعبارات محررة إلى سنة ٨٧٠ هـ . رتب على ستة وثلاثين طبقة[٦] .

---

(١) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٢ / ٣٥٤ .
(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ١ /٣٧٣.
(٣) فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية . قسم التاريخ .
(٤) كشف الظنون ١١٠١ .
(٥) فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .
(٦) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٦ / ١٠١ ، فهرس دار الكتب المصرية .

ثم ألف الفيروزابادى صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ هـ « المرقاة الأرفعية »[١] .

وجمع الشيخ شهاب الدين بن أرسلان بن أحمد بن حسين الشافعى الرملى ، المتوفى سنة ٨٤٤ هـ[٢] .

ثم صنف القاضى تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن شُهبة الدمشقى الأسدى ، المتوفى سنة ٨٥١ هـ مصنفاً رتبه على تسعة وعشرين طبقة . وعليه ذيل للشريف عز الدين حمزة بن أحمد الدمشقى الحسينى الشافعى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ[٣] .

ثم ألف رضى الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الغَزِّىّ العامرىّ الشافعىّ ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ كتابه « بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين ، من الشافعية البارعين »[٤] .

وفى أخريات القرن التاسع ألف القاضى قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ كتابا سماه « اللمع الألمعية لأعيان الشافعية »[٥] .

وقد جمع كمال الدين أبو المعالى محمد بن أحمد الشافعى المقدسى المتوفى سنة ٩٠٦ هـ تراجم لبعض فقهاء الشافعية فى ست ورقات[٦] .

ثم صنف أبو بكر بن هداية الله الحسينى الملقب بالمصنف، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتابا فى طبقات الشافعية طبع ضمن مجموعة ببغداد ١٣٥٦ هـ

---

(١) كشف الظنون ١١٠١ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١ / ٢٨٢ .

(٣) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١١ / ٢١ ، ٣ / ١٦٣ ، فهرس دار الكتب المصرية

(٤) فهرس جامعة الدول العربية .

(٥) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٩ / ١١٧ - ١٢٤ . قال السخاوى فى ترجمته للقاضى قطب الدين : وقد استعار من شيخنا [ابن حجر] نسخته بالطبقات الوسطى لابن السبكى ، فجرد ما بها من الحواشى المشتملة على تراجم مستقلة وزيادات فى أثناء التراجم مما جردته أيضا فى مجلد ، ثم ضم ذلك لتصنيف له على الحروف ، لخص فيه طبقات ابن السبكى مع زوائد حصلها بالمطالعة .

(٦) فهرس جامعة الدول العربية .

وآخر من نعرف ألف فى طبقات الشافعية شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى ، المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . جمع فى كتابه تراجم متأخرى الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى ١١٢١ هـ[(١)] .

(٦)

هذه هى جهود العلماء فى الترجمة لأعلام الشافعية ، ولكن ابن السبكى حين ألف كتابه هذا جاء إلينا بعمل فريد ، وقدم إلى الناس إحدى الموسوعات العربية ، ينهل منها كل من يطلب المعرفة ، وينشد فيها كل متخصص حاجته .

ولم يكن تأليفه الطبقات فكرة عابرة ، أرّقته حينا فسجلها فى كتاب ، وإنما كان يعد لذلك ــ كما أخبرنا فى المقدمة[(٢)] منذ صباه ، كَلِف بأخبار العلماء فجعل يجمعها ، وكلما وقع نظره على شاردة قيّدها ، أو حادثة أمعن النظر فيها ، أو على مناظرة شهدها وحكم فيها ، حتى إذا استقام عوده ، ونضجت ثقافته ، وكثرت تجاربه ، وملك زمام القول أفرغ هذا كله فى كتابه الطبقات . مارًّا بك على رياض الفكر ، ومواكب الشعر ، ومجالس العلماء « فبينا الفقيه منها فى عويص الفروع المشتبكة ، إذا به فى رياض من آداب تحرّك فاقد الحركة . وبيْنا الأديب فى نشر حلل مطرّزة ، إذا به فى مواعظ وحكم موجزة . وبيْنا المريد فى سلوك الطريق ، إذا به فى أحاديث مُسنَدة يعلم أنها باب التوفيق . وبيْنا المؤرخ فى حكايات انقضى زمانها ، إذا به قد عبر على تراجم يعز على المنقّب وجدانها »[(٣)] .

والطبقات الكبرى تشتمل على مقدمة ، وسبع طبقات ، يترجم فى كل طبقة منها لأعلام مائة سنة . أما المقدمة فقد استوفى فيها ابن السبكى مباحث عدة ، وناقش مسائل فى الحديث ، ونقد الرجال ، والنحو ، بل إنه ليعرض لقضايا علم الكلام ، فيقدمها

---

(١) فهرس دار الكتب المصرية .
(٢) صفحة ٢٠٦ من نشرتنا هذه .
(٣) صفحة ٢٠٩ .

وبين الآراء ، فى استقصاء شامل وسرد منهجى ، ثم ينتصر لرأيه ورأى الأشاعرة آخر الأمر .

ولم ينس تاج الدين أن يناقش آراء العلماء فى رواية الشعر ، وإنشاده ، وسماعه ، وأن يذكر ما بلغه مسندا من الشعر الذى أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن صحابته ، وعلماء الأمة وأخيارها ، وما روى عن الشافعىّ نفسه ، من إنشاء الشعر ، وإنشاده وسماعه .

وقد حرص أبو نصر على أن يذكر فى المقدمة طبقات الرواة ، الذين عنهم أخذ ، وبطريقهم أسند .

كما هزته الأحداث الدامية التى شهدها العالم الإسلامى ، إبان الزحف المغولى الغاشم ، فذكر حوادثها مختصرة ، على النحو الذى يحتاج إليه الفقيه ، وينشده غير المتخصص .

وقد نهج ابن السبكى فى مقدمته هذه نهجا فريدا ، حيث لم يستطرد فى افتتاحيته فيفتتح بسم الله ، ويثنى بحمد الله ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الشهادتين ، وإنما كان يتمهل فى ذكر ذلك كله . فقد بدأ كتابه ببسم الله وحمده ، تيمنا وتبركا ، ثم روى بسنده كل ما يتصل بافتتاح الأعمال من أحاديث ، وناقش كل ما عرضت له هذه النصوص من قضايا ، حتى إذا اطمأن إلى أن القول قد تم وكمل ، قال : « فبسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفع طبقات العلماء على هام الملوك وتاجها .... »[1] . ثم روى بعد ذلك بسنده الأحاديث التى تتعلق بالشهادتين ، واستوفى مباحثهما ، حتى تسنى له فيما بعد أن يقول « فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة آمنة من اختلال الأذهان واختلاجها... ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، إمام التقوى وضياء سراجها ... »[2] .

---

(١) صفحة ٢٤ .

(٢) صفحة ١٥٢ .

ثم يروى بعد ذلك بسنده الأحاديث التي تحض على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويبين ثواب فعلها ، وإثم تركها ، ثم يقول : « فصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وأصحابه ، وسائر الأنبياء والمرسلين ، القائمين بمداواة القلوب ... »(١)

ثم يروى بعد ذلك بسنده أحاديث فضل قريش وعلمائها ، ويخوض فى بحوث شتى حول الإمامة السياسية ، وإمامة العلماء ، ويتحدث عن مكانة الشافعى ونسبه ، ثم عن الأئمة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة ، فيجددون لهذه الأمة أمر دينها ، ثم يقول : « ورضى الله عن إمامنا المطلبى الشافعى ، شافى العِىّ عن الكلمات باعتدال مزاجها ... »(٢).

ولا يستطيع ابن السبكى أن يقول : « أما بعد » ويشرح سبب تأليفه للكتاب ، ونهجه فى وضعه إلا إذا ذكر بسنده من الأحاديث والآثار ما يتعلق بـ « أما بعد » وأول من قالها .

أما الطبقات فقد كسرها تاج الدين على سبعة أجزاء ، وعقد لأهل كل مائة سنة طبقة ، وهو يرى أن كتابه هذا : « كتاب حديث ، وفقه ، وتاريخ ، وأدب ، ومجموع فوائد تنسل إليه الرغبات من كل حدَب ، نذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة ، على طريقة المحدِّثين والأدبا ، ونورد نكتا تسحر عقول الألبّا »(٣) .

وقد جرى ابن السبكى فى ترجمته رجال الطبقات على نهج قويم ، يدل على بصر بتاريخ المترجَم ، وإحاطة بالفنون التى أجادها ، ووعى لدقائق الأمور التى أثارها ، وبصَر بالجديد الذى أضافه إلى العلم ، والمسائل التى تفرّد بها فى فنه ، يقول تاج الدين بعد أن ذكر سبيله هذا : « وكل هذا وراء مقصودنا الأعظم فيه ، ومرادنا الأهم الذى لا يقوم به سهر الليل ولا يوفيه ، إذ أعظم مقاصدنا أنّا عند الفراغ من ترجمة كل رجل ، أو فى أثنائها

(١) صفحة ١٨٩ .
(٢) صفحة ٢٠٣ .
(٣) صفحة ٢٠٧ .

ننظر ، فإن كان من المشهورين الذين طارت تصانيفهم فملأت الأقطار ، ودارت الدنيا ولم تكتف بمصر من الأمصار ، نظرنا فإن وجدنا له تصنيفا غريبا ، استخرجنا منه فوائد ، أو مسائل غريبة ، أو وجوها فى المذهب واهية ، وكتبناها . وإلا فنذكر وجها غريبا ذُكر عنه ، أو مقالة غريبة ذهب إليها ، وشذَّ بها عن الأصحاب . وإن كان من المقلّين أعملنا جهدنا فى حكاية شىء من ذلك عنه . وربما غلب الفقه على إنسان ولم نر عنه فى الفقه مستغرَبا ، فنقلنا عنه فائدة غير فقهية : إما حديثية ، أو غيرها . وربما غلب عليه الحديث ، أو غيره من العلوم سوى الفقه ، فأعملنا جهدنا فى نقل شىء من الفقه ، أو ما يناسبه عنه . فإن لم نجد له شيئا لم نخل ترجمته من حكاية ، أو شعر ، أو فائدة تستغرَب »(1) .

وقد أدرك تاج الدين صعوبة هذا المنهج ، ومشقته على القارئ ؛ ولهذا فهو يعتذر عن احتفاله بالأسانيد ، وحرصه على نقل المناظرات والمجادلات كاملة ، والاستطراد إن احتاج الأمر إلى الاستطراد ، يعتذر عن ذلك كله بأنه جعل كتابه كافيا لمن يقرؤه ، مغنيا له عن النظر فى كثير من المصادر .

ولم يستطع ابن السبكى أن يفى بوعده هذا فى كل ترجمة ، فهو أحيانا يذكر اسم المترجَم ، ثم يسكت عنه ، وأحيانا أخرى يذكر ترجمته ناقصة ، بل إن فى الكتاب مباحث لم يكملها المؤلف ، ربما كان يرجىء ذلك كله إلى فسحة من الوقت ، ولكنه لم يُنسأ له فى الأجل ، حيث مات فى الرابعة والأربعين .

وقد اعتمد تاج الدين فى ترتيبه كل طبقة على حروف المعجم ، وبدأ بذكر الأحمدين ثم المحمدين ، تيمنا وتبركا ، وكذلك فعل فى الطبقات الوسطى والصغرى ، حيث رتب المترجمين على حروف المعجم مع البدء أيضا بالأحمدين والمحمدين ، ولكنه أغفل الترتيب الزمنى للطبقات ، واكتفى بالترتيب على حروف المعجم ، ما عدا من لقى الشافعى منهم ، فقد أفرد هؤلاء بطبقة ، وذكرهم فى صدد الكتاب ، مرتبين على حروف المعجم .

(1) صفحة ٢٠٨ .

وهنا تثور مشكلة السبق فى تأليف الطبقات الثلاث ، بأيها بدأ تاج الدين ؟

يرى الأستاذ محمد الصادق حسين فى كتابه « البيت السبكى » : أن تاج الدين قد تدرج فى وضع طبقاته ، من المختصر إلى المطول ، لا من المطول إلى المختصر . وينقض على واضعى فهارس دار الكتب قولهم : إن المؤلف قد اختصر « الطبقات الوسطى » من « الكبرى » ثم اختصر « الطبقات الصغرى » من « الوسطى » ويعلق على هذا بقوله : « وهذا وهم ، فالثابت أن الطبقات الوسطى أُلِّفت قبل الكبرى ؛ لأنا نجد فى جزء من الوسطى مخطوط : قال المؤلف رحمة الله عليه : فرغت منه فى ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة ، عمرها الله تعالى . اهـ ، والطبقات الكبرى إنما فرغ من تأليفها سنة ٧٦٦ هـ ، كما جاء فى ذيل كثير من الأجزاء ، وكما ترى فى إحدى القطع الثلاث (فى صدر هذا البحث) التى يقال إنها بخط تاج الدين . وثابت أن الطبقات الوسطى ألفت وأبو المؤلف من الأحياء ، ففى الطبقات الكبرى أن على بن عبد الكافى كتب بخطه على ترجمته فى الطبقات الوسطى عبارة اختتمها بقوله : كتبه على السبكى فى يوم السبت ، مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة . اهـ ، لكن الطبقات الكبرى ألفت بعد وفاة والد المؤلف ؛ ففى غير موضع منها يذكر المؤلف والده ويترحم عليه ، فلا نزاع إذن فى أن الوسطى ألفت قبل الكبرى . ولم يتيسر لى الاطلاع على الصغرى لمعرفة تاريخ تأليفها إن وجد ما يدل عليه ، لكنى أرجح أنها ألفت قبل الوسطى » .

وقد تيسر لنا الاطلاع على نسخة من الطبقات الصغرى محفوظة بدار الكتب المصرية ، جاء بأولها : « هذا مختصر لطيف ، فى تاريخ الفقهاء الشافعيين ، أصحاب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رضى الله عنه ، جمعنا فيه ما أوردناه فى كتابنا الكبير من الأسماء ، واقتصرنا فيه على نُبذ يسيرة ، أعان الله على إكماله ، بمنه وكرمه وأفضاله » ، وفى آخرها : « هذا آخر المختصر الأصغر ، من كتابنا طبقات الشافعيين ،

وهو مع التناهى فى الاختصار والاقتصار ، جليل الفائدة ، جميل العائدة ، ولا يقدر على جمعه إلا من جمع من كتابنا الكبير والوسيط ، وأضافهما إلى كتبه » ، وفى آخرها أيضا : « قال المؤلف رحمه الله : كتبه مؤلفه عبد الوهاب بن على السبكى ، كان الله له ، واتفق الفراغ منه صبيحة يوم الأحد ، سابع شعبان المكرم ، سنة ٧٥٦هـ بدمشق » .

وقد رجعنا إلى نسخة من الطبقات الوسطى محفوظة بدار الكتب المصرية ، تبدأ بحرف الطاء ، وسجلنا منها هذه الملاحظات :

ا — فى آخر ترجمة القفّال الصغير ـ الطبقة الرابعة ـ يقول : « وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى » .

ب — فى آخر ترجمة عبد الله بن مروان ـ الطبقة السابعة ـ يقول : « أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى ».

جـ ـ فى أثناء ترجمة منصور بن محمد بن عبد الجبار ـ الطبقة الرابعة ـ يقول : « أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى » وكذلك قال فى ترجمة يعيش بن صدقة ـ الطبقة الخامسة ـ .

د — فى أثناء ترجمة القاسم بن محمد الشّاشىّ ، صاحب التقريب ـ الطبقة الثالثة ـ يقول: « وقد وقفت على الأول والثانى (من كتاب التقريب) وهما إلى أثناء الحج ، ولعلنا نورد منهما شيئاً من المستغرَبات فى الطبقات الكبرى » .

هـ — فى آخر الطبقات الوسطى ، فى باب الكنى والنسب ، يقول : « وبيت السمعانى بيت كبير ... وممن لم يسبق ذكره منهم محمد بن الحافظ أبى سعيد عبد الكريم ، وإنما أغفلنا ذكره نسيانا ، وكان يكنى أبا زيد ، وكان واعظا ... مولده سنة أربع وخمسين ، وتوفى بعد سنة سبع عشرة وستمائة » .

و — فى آخرها يقول : « وإلى هنا انتهى هـذا المختصر . قال المؤلف رحمة الله عليه : فرغت منه فى ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة » .

كما تيسر لنا الاطلاع على نسخة كاملة من الطبقات الوسطى ، محفوظة بجامعة الدول العربية ، يذكر المؤلف فى مقدمتها أنه ألف كتابا فى طبقات الفقهاء الشافعية مبسوطا حافلا ، حاويا لما يراد منه .

ويذكر أيضا ــ بعد انتهائه من إسناد أحاديث الافتتاح والحمدلة والشهادتين ــ يقول : « وفى الباب أحاديث أخر كثيرة ، سقناها مع إشباع الكلام عليها فى الطبقات الكبرى » .

ويذكر أيضا ــ بعد إسناده أحاديث أما بعد ــ قوله : « وقد جمعنا فى أما بعد أشياء جمة فى الطبقات الكبرى » .

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النقول تخلق من الترتيب الزمنى لتأليف الطبقات مشكلة تاريخية ، ولكن ابن السبكى يحسم ذلك ، بقوله فى مقدمة الطبقات الوسطى ــ المحفوظة بجامعة الدول العربية ــ : « فأعملنا الهمة فى كتابنا ، حتى جاء على الوجه الذى شرحناه ، إلا أنى لِمَا التزمت فيه من ذكر الغرائب ، لم يمكنى إخراجه من يدى فى هذا الزمان ؛ لأنه كل يوم يتجدد فيه استفادة ما لم يكن يعرفه ، فيحتاج إلى كتابته ، وأيضا فبقيت تراجم كثيرة نأمل تحصيلها وإيداعها فيه ، ومعلوم أن فى إخراجه من اليد إلى من يثب عليه ، وينسخه أحدَ أمرين : إما الكف عن كتابة ما تحدث بعد ذلك معرفته ، وإما إتلاف النسخ على أصحابها بالزيادة والنقصان وكثرة التغيير ، فعمدت إلى ذلك الكتاب ، واختصرته اختصارا ، يأتى بالتراجم على وجهها لا يدع منها اسما ، فإن أنت رأيت اسما فى ذلك الكتاب غير مذكور هنا ، فاعلم أنه مما زيد فيه ، بعد خروج هذا المختصر من أيدينا » .

ويتضح من هذا أن ابن السبكى قد بدأ بإخراج طبقات الشافعيين فى كتابه « الطبقات الوسطى » وكان فى أثناء ذلك يعمل لإصدار موسوعته فى هذا الفن ، التى عرفت باسم « الطبقات الكبرى » .

وإذاً فقد اتجه تاج الدين إلى الفراغ من كتابه « الطبقات الوسطى » ليخرجه إلى الناس ، تاركاً المسائل المعلقة لكتابه الكبير « الطبقات الكبرى » ولهذا لم يتيسر له أن يصل بالطبقات الكبرى إلى الكمال فيما كان يؤمله ، فترك بعض الثغرات فى كتابه : مسائل لم يكتمل القول فيها ، وترجمات لم يهتد إلى كل أخبارها ، وأسماء لم يعثر على أخبار تميزها ، وتحدد معالمها .

وربما كان ابن السبكى يرجع إلى طبقاته الوسطى بالصقل والتهذيب ، فلو رجعنا إلى الفقرة « هـ » من ملاحظاتنا على نسخة دار الكتب من « الطبقات الوسطى » ورجعنا إلى الطبقة السادسة من « الطبقات الكبرى » فلن نجد لمحمد السمعانى ذكراً فيها .

كذلك نلاحظ أن بعض التراجم الناقصة فى الكبرى كاملة فى الوسطى ، ففى ترجمة طلحة بن الحسين ـ الطبقة الخامسة ـ نجده لا يذكر إلا اسمه ، أما فى الطبقات الوسطى فإنه يقول : « طلحة بن الحسين أبو محمد الإسفرايني [المهرجانى ، مات فى دهليز الحمام فجأة ، وذلك فى خامس ذى الحجة ، سنة ست وأربعين وخمسمائة] » .

ومن هنا كانت الطبقات الوسطى محل إجلال العلماء ، وقد اعتمدها ابن حجر ، واستعارها منه القاضى قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤هـ وأفاد منها فى تأليف مصنفه عن الشافعية[1].

ولعله اختصر طبقاته الصغرى ، من الطبقات الوسطى ، ومن الطبقات الكبرى ، أثناء عمله فيها وقبل الفراغ منها .

* * *

(١) الضوء اللامع ٩ / ١١٧ ـ ١٢٤

(٧)

وقد اعتمدنا فى نشر هذا الكتاب وتحقيقه على :

١ ـ نسخة محفوظة بمعهد المخطوطات ـ جامعة الدول العربية ـ مصورة عن مكتبة البديرى بالقدس ، وهى مكتوبة بخط نسخ جيد ، غير مرتبة ، وأوراقها مضطربة ، وبها خروم ، وقد تماكها بعض العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر وغيره ، وهى فى ٥٠٠ ورقة ومقاسها ١٩ × ٢٨ سم .

وقد تفحصنا أوراقها ، وأعدنا ترتيبها ، فسلم لنا قدر صالح منها ، يشتمل على المقدمة ، والطبقات : الأولى ، والثانية ، وبهما خروم يسيرة ، والثالثة كاملة ، وبعض لوحات من الرابعة ، والسادسة ، وبها خروم ، والسابعة كاملة .

وكان لتملك بعض العلماء لها فضل كبير، فى دقة المقابلة، حيث عورضت بنسخة المصنف والضبط بالقلم فى بعض الأماكن . وخلال عملنا فى المقدمة اتضحت لنا ملاحظات قيمة تجدها فى صفحات : ٢٠ السطر ٢٠ ، ٦٨ السطر ١٥ ، ٧٨ السطر ١٨ ، ٨٢ السطر ١٨ ، ١٤٧ السطر ١٩ ، ١٨٧ السطر ٢٠ ، ١٩٧ السطر ٢٢ ، ٢٥٣ السطر ١٩ . وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز : « ج » .

٢ ـ نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية ، تقع فى ٤٥٨ ورقة ، مقاسها ٣٠ × ٢٠ سم بأولها فهرس بأسماء المترجَمين والحوادث المهمة ، وبآخرها أدعية مأثورة للمصنف ، وقد تمت كتابتها فى يوم الأربعاء السادس من شهر رجب سنة ١١٢٩ هـ ، وهى نسخة كاملة، نسخها غير دقيق ، وبها سقط فى بعض المواضع ، وقد لاحظنا أن بعض هذا السقط مثبت فى الأصل المطبوع وفى صلب : ج ، والبعض الآخر ، فى المطبوع وعلى هامش : ج . وهذه النسخة توافق : ج غالبا ، عند اختلاف النسخ . وقد رمزنا لها بالرمز : « د » .

وفى بداية النسختين ج ، د نجد هذا الافتتاح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، رب يسر وأعن ، قال سيدنا ، العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تاج الدين ، مفتى فرق المسلمين ، حجة الحفاظ والمفسرين ، سيف النظار والمتكلمين ، ناصر السنة ، مؤيد الملة ، أحد المجتهدين ، خطيب الخطباء المسلمين ، قدوة الفصحاء والبلغاء المفوهين ، أبو نصر عبد الوهاب بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ، أوحد المجتهدين أبى الحسن على بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن تمام الأنصارى الخزرجى السبكى الشافعى ، أمتع الله الإسلام وأهله بطول حياته ، وأعاد عليهم من عوارفه وبركاته ، آمين » .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة وحيدة سنة ١٣٢٤هـ بالمطبعة الحسينية بمصر ، طبعة غاية فى النكر والرداءة ، شاع فيها التصحيف والتحريف ولم يذكر ناشرها الأصل الذى أخذت عنه ؛ ولذلك فقد أهملنا ذكر كثير من الفروق بينها وبين النسخ الأخرى ، ولم نذكر من الفروق إلا ما كان لذكره وجه .

وفى أصل الكتاب بياض فى بعض المواضع ، وتكرار لبعض التراجم ، ولبعض الفقرات ، كذلك نجد خلطا فى ذكر التراجم ، فقد ترجم ابن السبكى للفضل بن محمد ابن الحسين فى الطبقة الثالثة ، ثم عاد فترجمه فى الطبقة الرابعة ، ولعله تردد فى ذكره فى إحدى الطبقتين ، فوضعه فيهما لعدم وثوقه . كذلك نجد تكرارا لخاتمة الطبقة الأولى ؛ حيث ذكر هذه الخاتمة قبل ذكره الفوائد والمسائل عن يونس بن عبد الأعلى ، ثم عاد نختم الطبقة بها .

وكل هذه الهنات مشتركة بين الأصول ؛ المطبوع منها والمخطوط ، مما يدل على أن المؤلف

لتى يزيه قبل أن يعود إلى مصنفه فيسد الخلل ، ويكمل النقص ، ونحن الآن بصدد تصوير نسخة كاملة من « الطبقات الوسطى » محفوظة بجامعة الدول العربية ، للاستفادة بها . فى تكميل هذا النقص ، ورتق هذا الخرق .

وفى دار الكتب المصرية قطعة من الطبقات الكبرى يقال إنها بخط المصنف ، وتشتمل على بعض التراجم .

وقد أخذنا نفوسنا عند العمل فى هذا الكتاب ، بمضاعفة الجهد ، وبذل كل ما تحتمله الطاقة فى ضبط نصوصه وأعلامه ، وتوثيق نقوله وشواهده ، وتخريج أحاديثه وأبياته . مع الحرص على سلامة النص ، وسهولة الرجوع إليه ، ويسر الاستفادة منه ؛ ولذلك فقد انتوينا أن نلحق بالكتاب فهارس كاشفة ، تدل على أعلامه وأماكنه ، وأبياته ، ورجزه ، وأمثاله ، وآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، والكتب التى أورد ذكرها المؤلف ، وسنضيف إلى كل ذلك ــ إن شاء الله ــ كشافا بمسائل العلوم والفنون التى احتفل بها المصنف ، وملأ بها كتابه ، وقد دفعنا إلى هذا الجهد المضاعف إيماننا بالمكانة العظيمة التى يحتلها هــذا الكتاب فى المكتبة العربية ، وحرصنا على أن نقدمه لجمهرة المثقفين ، ناضج الثمار ، دانى القطاف .

ولا يسعنا فى هــذا المكان إلا أن نتقدم بالشكر إلى العلماء الأجلاء ، الذين أفدنا من توجيهاتهم .

وإلى الأستاذ فؤاد سيد ، على ما قدمه لنا من نصح كريم ، وعون مشكور .

وإلى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، على اهتمامه بإخراج هذا الكتاب ، وحرصه على أن يقدم لنا ما يعين على نشره وإتمامه .

* * *

ونسأل الله الكريم أن يسدد خطانا فى سبيل هذا العمل العظيم ، وأن يعين على إتمامه كما أعان على البدء فيه ، وندعوه أن يربط على قلوبنا فنمضى فيه مسددين موفقين ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى : غرة رمضان المبارك ١٣٨٣ هـ
١٦ يناير سنة ١٩٦٤ م

عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحى

مصادر الترجمة :

البداية والنهاية لابن كثير (١٤/٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٦، ٣١٨)
البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين .
تاج العروس للزبيدي (س ب ك) .
تاريخ الأدب العربي . لبروكلمان (٢ : ١٠٨ ، ملحق ٢: ١٠٥).
حسن المحاضرة للسيوطي (١ : ١٤٨) طبع مصر .
الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (١ : ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ . ٤٥٨ ، ٤٦٣) .
الدرر الكامنة لابن حجر (٢ : ٤٢٥ ـ ٤٢٨)
درة الأسلاك في دولة الأملاك لابن حبيب (٣ لوحة ٢٤) مصور بدار الكتب .
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .
فهرس جامعة الدول العربية (التاريخ) .
فهرس دار الكتب المصرية (التاريخ) .
فهرس الفهارس للكتاني (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣) .
كشف الظنون (١٠٠ ، ١٥٠ ، ٣٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٩٥ ، ٨٧٦ ، ١١٠١ ، ١١٥٧ ، ١٧٤٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٩) .
المنهل الصافي لابن تغرى بردى (١ : ٣٦٠) مخطوط بدار الكتب .
المواعظ والاعتبار المقريزي (٢ : ٢٧٩) .
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (١١ : ١٠٨ ، ١٠٩) .